مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

من ثقافة الأصالة إلى إيديولوجية إخفاء الهوية

دراسة أنثروبولوجية

بنيونس عليوي
باحث مغربي

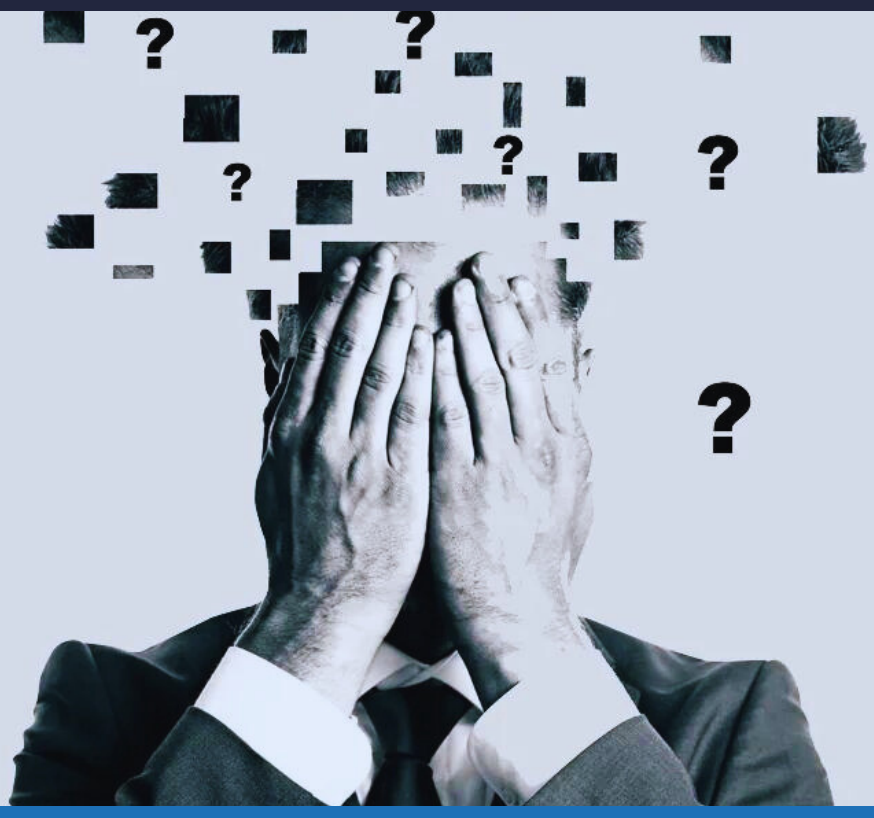

2023

- **بحث محكم**
- **قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية**
- 19 أكتوبر 2023

جميع الحقوق محفوظة © 2023

من ثقافة الأصالة إلى إيديولوجية إخفاء الهوية

دراسة أنثروبولوجية

ملخص البحث

يروم هذا البحث دراسة علاقة المشاكلة والتعالق بين مفهوم الهوية، ومفاهيم أخرى متعلقة به من قبيل الثقافة والعولمة واللغة؛ وذلك من زاوية نظر أنثروبولوجية، مستحضرين مجموعة من البراديكمات التفسيرية التي ظهرت خلال عصر الحداثة وما بعد الحداثية.

مقدمة

يتطلب الخوض في قضايا الهوية استحضار الكثير من المعطيات المترابطة لرسم معالمها، خاصة عندما ترتبط بمفهوم الثقافة في بعدها الأنثروبولوجي. وقد يصعب توقع مثل هذا الأمر بالنظر إلى الأهمية والهيمنة التي يحظى بها المصطلح في أيامنا هذه؛ إذ ترتبط الكثير من موضوعات الأنثروبولوجيا بالهوية، ومنذ سنوات الثمانينيات على وجه التحديد. وأحد الأسباب المهمة لهذا التحول، هو أن الناس في جميع أنحاء العالم صاروا يفكرون وفق مفردات الهوية، ويسهمون في انتشار المصطلح بوعي تام. فالهوية أداة رئيسة لتعريف الذات، وللتعبئة السياسية، والعمل، والحكم، وبالطبع، تعد تفكيرا فلسفيا عن الكينونة لدى الناس.

والهوية ليست كلمة جديدة، فاستخداماتها المعاصرة الرئيسة تمتد في واقع الأمر لزمن مضى. وفي التعريف الأول الذي ورد في أوكسفورد يقول إنها «النوعية أو الشرط الذي يكون فيه شيء هو نفسه في الجوهر. ويمكن لهذا التعريف أن يحيل إلى أي شيء كان كالعدد أو النجوم بيد أن المصطلح قد احتل مكانة متميزة في مفرداتنا الخاصة المستخدمة في تعريف الذات والمجموعات، خلال الأعوام الخمسين أو الستين الماضية. كما يضيف قاموس أوكسفورد تعريفه أيضا بالتأكيد أن هذا الشرط أو النوعية نفسها يجب أن يستمر في الزمن وهذا الجانب الثاني من الهوية مهم للغاية.[1]

من هذا المنطلق، يتبلور سؤال مهم من الأسئلة المرتبطة بموضوع الهوية، وهو كيف تم فهم الذات والجماعة بشكل متزايد، وفق مفردات أقرب لما نسميه اليوم بالعولمة؟

1 ماثيو أنجيلكه، كيف تفكر كأنثروبولوجي، ترجمة عومرية سلطاني، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط 1، 2020، ص 181

1. الهوية من وجهة نظر أنثروبولوجيا

يعد مفهوم الهوية أحد المفاهيم الأكثر استعمالا في العصر الحديث، خاصة في حقل الأبحاث المتعلقة بالعلوم الإنسانية؛ إذ يستعمل في العلوم الاجتماعية، وفي السوسيولوجيا على الخصوص منذ عقود، وهو مفهوم يشير تحديدا إلى الوعي الذي يميز الأفراد بعضهم عن بعض، وأيضا الخصائص التي تتميز بها جماعة ما، وتجعلها كيانا متمايزا عن باقي الجماعات. اهتم السوسيولوجيون خاصة بدراسة الهويات الجماعية للجماعات والشرائح الاجتماعية، والمهن، والعائلة؛ ولذلك فالهوية سيرورة معقدة، ودينامية مركبة ذات أبعاد متعددة.

والهوية في معناها المجرَّد هي جملة علامات وخصائص من أجناس مختلفة، تستقلُّ بها الذات عن الآخر، فبغياب هذه العلامات والخصائص تغيب الذات وتذوب في الآخر، وبحضورها تحضر؛[2] أي مجموع العوامل التي تمنح الإنسان، بصفته الفردية، والمجتمع بصفته مجموعة روابط، الشعور بالوجود والانتماء والمصير المشترك. هذا الشعور يضمن استمرارية الجماعة، ويحمي كيانها.[3] وحينما يختفي هذا الشعور تبدأ الجماعة في مواجهة مصير التفكك. (وهذا يتطابق مع التعريف الذي يقدمه ماكس فيبر عندما يتحدث عن جماعات لديها إحساس بالأصل المشترك). فالهوية هي نظام من القيم والتصورات التي يتميز بها مجتمع ما تبعًا لخصوصياته التاريخية والحضارية، وكل شعب من الشعوب البشرية ينتمي إلى ثقافة متميزة عن غيرها، وهي كيان يتطور باستمرار ويتأثر بالهويات الثقافية الأخرى، ولهذه الأخيرة ثلاثة مستويات؛ هوية فردية، هوية جماعية، هوية وطنية.[4]

ومن ثمَّ يمكن القول: إن الهوية هي الكيفية التي يُعَرِّف الناس بها ذواتهم أو أُمَّتهم، وتُتَّخذ اللغة والثقافة والدين أشكالاً لها؛ فهي تنأى بطبعها عن الأحادية والصفاء، وتنحو منحى تعدديًّا تكامليًّا إذا أُحسن تدبيرها، ومنحى صداميًّا، إذا أُهملت وأُسيء فهمها، تستطيع أن تكون عامل توحيد وتنمية، كما يمكن أن تتحوَّل إلى عامل تفكيك وتمزيق للنسيج الاجتماعي، الذي تؤسِّسه عادة اللغة الموحدة.[5]

لقد ساعدت الهوية على نقل المفاهيم وطرائق العيش والمواقف والتصورات وشبكة المثل، ونسق القيم، فالشخص ينتمي إلى هوية محددة لكن بمجرد أن يعلن انتماءه للمجتمع ينخرط في عملية التكييف والاستبطان لمعطيات الواقع، ويعيد تشكيل تلك الهوية وفق الخيارات المتاحة. فالهوية هي تجربة مجتمع ما مع الوقائع الكامنة في التاريخ وفي امتداداته ومآلاته. إنها مشروع مجتمع له إرادة البقاء، ولعل الاعتراف بمبدأ الهوية وفقا لهذه التحديدات، هو اعتراف بالتعدد والتنوع الكامنين في متن الوجود الإنساني.

---

2 عبد العلي الودغيري، اللغة والدين والهوية، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2000، ص67

3 تلعب المسافة بين الأنا والآخر دورا في وعي الهوية، في انغلاقها أو انفتاحها؛ إذ لا تتحقق للهوية توازناتها من خلال الذات فقط، بل أيضا من خلال الآخر. المغاير حالة انتماء وجودية لا تمثل بالضرورة نقيضا، وإنما امتداد في التاريخ، والمجتمع، والقيم، والعيش المشترك. هذا المغاير هو صورة عاكسة لأنماط وروابط اجتماعية تنتمي إلى جملة المعايير التي تساعد على التصنيف الاجتماعي وإنتاج المواقف والتمثلات.

4 جمال نصار، الهوية الثقافية وتحديات العولمة، مقال في موقع الجزيرة: https://cutt.us/NT2at

5 رشيد بلحبيب، الهويات اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي، إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت يناير/كانون الثاني 2013، ص ص247، 248

من هذا المنطلق، يمكن القول: إن التمسك بالذات والبقاء مع الآخر هو ما يجعل الهويات قابلة للاستمرارية؛ فالهوية ليست بضاعة جاهزة، بل هي تجربة إنسانية خاضعة لصيرورة العيش مع الآخر.[6]

- تزامن الهويات المتنوعة وفوضى البحث عن النموذج

الثقافة من حيث النوع قد تكون علمية تقنية أو تكون أدبية إنسانية، فالثقافة التقنية عالمية بطبيعتها؛ لأنها مرتبطة بالعقل، وكذلك أداة الثقافة؛ أي تطور الأداة، فهي وسائل المدنية. أما الثقافة الإنسانية التي تقوم على العطاء الحضاري وتطور الإنسان نفسه، فإنّها من الأمور القومية التي لا يمكن تعميمها، ولا يسمح بهدر هويتها؛ لأنّها مرتبطة عضويا بالتاريخ والطبيعة، وليس بالعرض والعقل.[7] ولكي تبدأ عملية التحرر الثقافي، لا بد من التمييز بين الثقافة التقنية وخصوصية الثقافة الإنسانية، ولا بد من التمييز بين المدنية العالمية وبين الحضارة القومية، وبصورة عامة لا بد من التمييز بين العالمية الثقافية والذاتية الثقافية القومية. وهذا ما استرعى انتباه المنظمات الدولية. في حين أكدت منظمة الأمم المتحدة عام 1974 على الدعوة إلى إقامة نظام اقتصادي عالمي نادت منظمة اليونسكو بإلحاح، بضرورة حماية الذاتية الثقافية الإنسانية.[8]

وعلى الرغم من هذا التنوع، فنحن نعيش في حضارة عالمية، على حد تعبير «فاكلاف هافل»: «إنّنا نعيش في عالم يستظل لأوّل مرة طيلة تاريخه بمظلة حضارة واحدة».[9]

وبناء على هذا، فإنّ هذه الحضارة العالمية التي استغرقت كل الكوكب الأرضي في الوقت الذي تكفل فيه حرياتنا الأساسية بكل حسم، فهي تعاني من نواقص عدة.

2. الثقافة مدخل للفهم

أ. تعريف الثقافة

للثقافة عدة دلالات ومعان وتعريفات، وهي بمثابة النسق من القيم والقواعد والتمثلات المستنبطة التي توجه السلوكيات الفردية والجماعية، وتؤسس الأنساق التنظيمية والاجتماعية وتعطي دلالة قيمية ومعيارية لكل موضوع مادي أو اجتماعي[10]؛ فهي تحيل على مجمل القيم والرموز والأخلاق والسجايا والمعتقدات والمفاهيم والأمثال والمعايير والأعراف والتقاليد والعادات والوسائل والمهارات التي يستعملها الإنسان في

6 محمد الغيلاني، الهوية والاختلاف في قضايا الدين والمجتمع: الهوية هي الاختلاف، موقع مؤمنون بلا حدود: https://cutt.us/FeFIa

7 عفيف البهنسي، الهوية الثقافية بين العالمية والعولمة، منشورات وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب 2009، ص92

8 عفيف البهنسي، الهوية الثقافية بين العالمية والعولمة، منشورات وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب 2009، ص 93

9 Vaklav Havel, Il est permis d’espérer, trad. Par Barbara Faure, Calmann-Levy, Paris, 1997. P16

10 Zghal, R. : Culture et comportement organisationnel. - Thèse de doctorat d’état 1982.- p. 83

تعامله مع بيئته، أو بلغة ابن خلدون «آداب الناس في أحوالهم في المعاش وأمور الدنيا ومعاملاتهم وتصرفاتهم في الحياة اليومية «، وهي الفكر من علوم وفلسفة ومذاهب وعقائد ونظريات.[11]

ولا شك في أن أقدم التعريفات وأكثرها ذيوعا حتى الآن هو تعريف الأنثروبولوجي الإنكليزي إدوارد تايلور يقول الثقافة هي: «كل مركب يشتمل على المعارف والمعتقدات والفن والقانون والأخلاق والتقاليد وكل القابليات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع معين».[12]

وتتداخل هذه المكونات وتشكل معا الثقافة العامة لشعب ما، ولكل شعب ثقافته مهما كانت درجة حضارته أو درجة تقدّمه؛ ومن أهم خصائص الثقافة أنها تنتقل من جيل إلى جيل ومن شعب إلى شعب عن طريق الرموز أو اللغة. والثقافة ليست مجموعة مكونات ثابتة وجامدة ومطلقة ومغلقة تصلح لكل مكان وزمان، بل هي متطورة، متغيرة، مرنة، نسبية، منفتحة وديناميكية[13].

خلاصة القول إن الثقافة هي جملة الأحوال الاجتماعية والمنجزات الفكرية والعلمية والتقنية وأنماط التفكير والقيم السائدة؛ أي كل ما يتداوله الناس في حياتهم الاجتماعية من مكتسبات تحصل بالتناقل والتعلم.[14] كل ذلك يؤكد ما تذهب إليه الأنثروبولوجيا الثقافية في التأكيد على أهمية العامل الثقافي في تنمية شخصية الفرد وتحديد سلوكه عبر ما يعرف بالعادة والتعلم؛ ذلك أن الثقافة هي فعل مكتسب، وهي التمثلات السلوكية المكتسبة والمنقولة من قبل عناصر مجتمع معين، وهي بالتالي عبارة عن «حالة نفسية» بموجبها يتمكن الفرد من الإحساس بالراحة داخل البيئة التي يعيش فيها على حد تعبير لنتن.[15]

ب. الثقافة والديناميات البانية للهوية

إن قدرة الإنسان على إنتاج الثقافة هي أهم خاصية تميزه عن باقي المخلوقات، وبما أن الإنسان كائن اجتماعي، فإن سلوكه يصدر في أشكال وأنماط منتظمة فيها شيء من الاطراد والتواتر، وقد استخدم الباحثون خلال دراساتهم لهذا الاطراد والتواتر ثلاثة مفاهيم: المجتمع والثقافة والشخصية.[16] فالثقافة لا توجد إلا بوجود مجتمع، وعناصر المجتمع الأولى هي الأفراد، والمجتمع لا يبقى إلا بالثقافة، وفيه تتكون شخصية الإنسان وقد تطور مفهوم الثقافة كما شهد عدة تحولات، هذا من جهة من جهة أخرى فللثقافة عدة خصائص

11 بركات، حليم: المجتمع العربي المعاصر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، سنة 1984، ص.321

12 Edward B. Tylor, Primitive Culture: Researches into the Development of Mythology: Philosophy. Religion, Art, and Custom, 2 vols. (London: J. Murray, 1871).

13 بركات: مرجع سابق.، ص.ص.321-322

14 انظر الموسوعة الفلسفية العربية، بيروت، معهد الإنماء العربي، 1986.- ص.310

15 Linton, R. : De l'homme.- Edition de Minuit, 1968.- p.p. 123-124

16 عبد الغني عماد، سوسيولوجية الهوية، جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء، مراجعة: فادي كحلوس، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، شباط/ فبراير 2017

أساسية يتفق عليها علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع: اللغة، الخصوصية التاريخية، استجابة للحاجات الإنسانية، الشخصية الأساسية كمدخل لفهم الثقافة.

تشتمل إذن كل ثقافة على سلسلة من النماذج لما يجب أن يكون عليه السلوك بين الأفراد، ولا يمكن لنموذج ثقافي أن يستمر إذا فرض واجبات متضاربة على الشخص الواحد، وإلا فلا يستطيع المجتمع أن يؤدي وظيفته. ومع ذلك، فهناك شك فيما إذا كان بمقدور الفرد التكيف الكامل مع النماذج، حيث لا يواجه أبدا وضعين متناقضين؛ ذلك أن أفضل ما يستطيع أي نظام تحقيقه، هو أن يجعل مثل هذه التضاربات نادرة. لذلك يمكن القول، إنه بقدر ما تكون المجتمعات حصيلة ثقافة، فالثقافة أيضا هي حصيلة تفاعل الأفراد في المجتمعات.

ومع ذلك، كان ولا يزال الوصول إلى الأسباب التي يقوم على أساسها التباين بين الثقافات والاختلاف في المستويات الحضارية القضية الفكرية الأساسية التي استقطبت الاهتمام وكثيرا من الجدل والنقاش، وهي تبلورت في مقاربات واتجاهات. وقد سادت الأفكار التطورية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلا أنها تلقت كثيرا من النقد، على أساس أنها اعتمدت على مادة يشوبها التحيز وعدم الدقة إلى جانب نزوعها نحو التعميم المطلق لكل الثقافات. ونتيجة لهذا النقد، فقدت هذه المقاربة بعض أهميتها، وتبلورت خلال القرن الماضي وتحديدا في نصفه الأول مقاربات جديدة تفاعلت مع بعضها، وقدمت في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية أفكارا جديدة.[17]

من جهة أخرى، يمكن استحضار مقاربة بالغة الأهمية تنظر للثقافة، باعتبارها استجابة للحاجات الإنسانية، وهي مقاربة تعتمد على التحليل الوظيفي، وقد ظهر هذا التصور على يد مالينوفسكي الذي ربط الثقافة بكل جوانبها المادية والروحية بالحاجات الإنسانية؛ فالثقافة عبارة عن كيان كلي وظيفي متكامل يماثل الكائن الحي، حيث إنه لا يمكن فهم دور أي عضو من أعضائه ووظيفته إلا في ضوء علاقته بباقي أعضاء الجسم. ومن خلال هذا التشابه بين الثقافة والكيان العضوي للإنسان، فإن دراسة الدور أو الوظيفة التي يؤديها كل عنصر ثقافي تمكن الباحث الإثنولوجي من اكتشاف ماهيته وضرورته.[18] فالعنصر الثقافي لا يمكن فهمه، في نظر - مالينوفسكي - عن طريق إعادة تكوين تاريخ نشأته أو انتشاره - كما دعا إلى ذلك بواس، وإنما من خلال دراسة وظيفته الفعلية في إطار علاقته مع العناصر الأخرى. يترتب على ذلك ضرورة دراسة ثقافات الشعوب كلا على حدة، في إطار وضعها الحالي، لا كما كانت عليه أو ما أصبحت عليه بعد أن تغيرت.[19]

---

17 عبد الغني عماد، سوسيولوجية الهوية، جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء، ص ص 64 - 65

18 المرجع نفسه، ص 67

19 ولعله من الإسهامات المهمة التي أتى بها هذا الاتجاه هو تأكيد خاصية نسبية الثقافة الإنسانية، الأمر الذي ساعد على تقويض دعائم فكرة العنصرية والتعالي الغربيتين، حيث أوضح التحليل وفق هذا الاتجاه أن الثقافة أسلوب حياة له مقوماته العقلانية، كما أنه يعكس مواءمة مقبولة بين الإنسان والبيئة والحاجات الفردية.

ج. الثقافة والمنظومة اللغوية

يقودنا الحديث في قضايا الهوية إلى ضرورة الحديث تحديد العلاقة بين اللغة والثقافة، من منطلق أن اللغة تمثل روح الأمة وعنوان هويتها؛ فهي ركيزة من ركائز بناء الأمم ونهوضها. وتعد الثقافة المعرفة التي نتعلمها من خلال الآخرين، سواء كان تعلمنا لها بطريقة مباشرة، وهنا تدخل اللغة باعتبارها الأداة الأساسية التي نستطيع من خلالها تعلم المعرفة؛ لأنها هي من تنقل الثقافة عبر الأجيال، أو بطريقة غير مباشرة من خلال مراقبتنا لسلوك الآخرين، كما أن الثقافة تعني عندما تؤسس جماعة بشرية معينة طريقة لحياتها، وتكون هذه الطريقة مقبولة ومعترف بها بصورة عامة من ملبس وأدب السلوك والمعتقدات، توصف هذه بأنها ثقافتهم.

وتختلف الثقافة مثلها مثل اللغة من مجتمع إلى آخر، فلكل مجتمع ثقافة خاصة به، تحمل صفات ومميزات ليست موجودة في مجتمع آخر، هذا ما يجعل الثقافة أساس بناء المجتمعات، وبالتالي فهناك علاقة وثيقة بين اللغة والثقافة تظهر من خلال:

- التمييز بين الثقافات على أساس اللغة؛ فوجود جماعات تتحدث لغات مختلفة هذا دليل على وجود ثقافات متنوعة.

- تختلف اللغة وأساليب وطرائق استخدامها باختلاف ثقافة الأفراد، خاصة وأن اللغة هي لسان الثقافة وعنوان الحضارة؛ فمن خلالها نستطيع نقل العلوم بين الأمم.

وتؤكد النظرية الأنثروبولوجية على لسان أحد روادها «فرانز بواس»، أن اللغة المشتركة بين المجتمعات هي الناقل الأساسي لثقافتهم، وحسب هذا الطرح لا يمكن دراسة ثقافة الشعوب من دون التعرف على لغتهم الخاصة؛ لأن اللغة فعالة في فهم طبائع المجتمعات الإنسانية، هذا ما جعل الأنثروبولوجيا اللغوية تهتم بدراسة اللغة وعلاقتها بالبيئة الثقافية التي تنشأ فيها، فضلا عن الدور المتميز التي تقوم به اللغة كوعاء لثقافة.

وتؤكد نظرية الانعكاس على العلاقة بين اللغة والثقافة، باعتبار أن اللغة هي انعكاس للثقافة التي يصنعها ويستعملها الناس في المجتمع، ووفق هذه النظرية الثقافة لا تحدد بنى اللغة، وإنما تؤثر في طريقة استعمالها.

د. في تشكل الهوية الثقافية وتفككها براديغمات المعرفة والفعل

يرتبط البراديغم[20] ارتباطا وثيقا بالفيلسوف الأمريكيّ «توماس كون» الذي وظّفه في كتابه «بنية الثّورات العلميّة La structure des revolutions sientifiques»، والّذي فند بمقتضاه ارتهان حركيّة العلم في تطوّره وسيرورته لمبدأ التّراكم، وأضحى مفهوم الأنموذج /البراديغم يجعلنا ننظر إلى العلم ليس كتراكمات كميّة، وإنّما

20 كلمة pradigme: يرجع أصلها إلى الإغريقيّة، إذ كانت تحمل معنى تصميم هندسي وقد دخلت إلى الثقافة الانجليزيّة في القرن XV بينما كان ولوجها إلى الثقافة الفرنسيّة إبّان القرن XVI

كنقلات نوعيّة أو ثورات تخرج عن المألوف وتتجاوزه وتؤسّس لرؤية جديدة ". إنّه بالأحرى إعادة بناء قطاع بكامله على أسس جديدة».[21]

كل شخصية لها أصولها بالذات كنتاج اجتماعي، فهي ليست مجرد انعكاس للوسط المحيط بها؛ أي إن الوعي الاجتماعي السائد يتجسد في الفعل الاجتماعي؛ لأنه ينضوي تحت «بنية معرفية معيارية» زودته بها الثقافة ومنظومة القيم والقواعد السلوكية الجماعية. وهذه البنية المعرفية المعيارية بمثابة دليل ومرشد لوجهة العقل ومساراته، وتصبح بمنزلة «العناصر البانية للهوية» الاجتماعية والثقافية، والتي تميز الثقافة الجمعية المشتركة والسائدة في جماعة معينة، وحول «التمثّلات الاجتماعية بوصفها أطرًا ومحددات للعقل والهوية»؛ فالتمثّل هو نتاج خفي لنشاط الإرادة. ويرى دوركهايم أن التمثّلات الاجتماعية: هي مجموعة من التراكمات القيمية والمعيارية المنتجة من قبل المجتمع، والخارجة عن الشعور الذاتي للأفراد الاجتماعيين، كما أنها غير قابلة للخضوع لذواتهم الفردانية، بحكم طابعها الجمعي الذي ينصهر فيه الأفراد إكراهًا وبصيغة قهرية.[22]

إن لمفهوم الاندماج الاجتماعي دورًا محوريًا في تحليل سياقات التفكك والبناء الهوياتي، وهو مفهوم يختلف تحديده من طبيعة مجتمع لآخر: ففي المجتمع التقليدي تُذاب «الأنا» لصالح سلطة «النحن»، وبالتالي يختلف وعي الانتماء، بحسب طبيعة المجتمع، ويصبح التضامن في المجتمع التقليدي «ميكانيكيًا». أما في المجتمعات الحديثة، فيكون تضامنًا عضويًا.[23] فحركة الأفكار والهويات في تحولها إلى أيديولوجيا، تصبح منظومة فكرية لها تنظيمها الذاتي ودفاعها الذاتي، والذي يتسم بصفة توليدية تجعله قادرًا على إعادة إنتاجها وحمايتها، وهذا ما عبّر عنه إدغار موران، بقوله: كل منظومة فكرية هي مغلقة ومفتوحة في آن، فهي مغلقة تحمي نفسها، مفتوحة: تغذي التأكيدات لصالحها، وهي على نوعين: منظومات يتصدر فيها الانفتاح كالنظريات، والآخر يتصدر فيه الانغلاق كالمذاهب. فالمنظومة الفكرية بصيغتها الهوياتية الثقافية العامة، يتصدر فيها الانفتاح، وهي عكس الأيديولوجيا.[24]

3. الهوية الثقافية في ضوء نظام العولمة نظرة أنثروبولوجية

أ. مفهوم العولمة

إن مصطلح العولمة هو ترجمة للمصطلح الفرنسي (Mondialisation) وللمصطلح الإنجليزي (Globalisation). والعولمة مفهوم عولج في دراسات العلوم الاجتماعية كأداة تحليلية لوصف عمليات التغير في كافة المجالات، وهو ما يعني أن هناك خطا جديدا وعلاقات اجتماعية مادية ونفعية تستبعد كل المفاهيم

21 توماس كون، بنيّة الثورات العلميّة، ترجمة: علي نعمان، لبنان، دار الحداثة، الطّبعة الأولى، 1986، ص 149

22 عبد الغني عماد، سوسيولوجية الهوية، جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء.

23 المرجع نفسه.

24 عبد الغني عماد، سوسيولوجية الهوية، جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء.

القومية والعرقية والعائلية والدينية. ومن ثمة، يرى بعض الدارسين أن العولمة ترتبط بأربع عمليات أساسية، وهي المنافسة بين القوى العظمى والوصول إلى التقنية الجديدة وشيوع عولمة الإنتاج والتبادل والتحديث.[25]

تعرف العولمة في الأنثروبولوجيا بوصفها عملية لخلق «عالم مترابط بشكل مكثف، حيث تدفع التدفقات السريعة لرأس المال، والأفراد، والسلع، والصور، والأيديولوجيات، المزيد من الكون نحو شبكات من الترابط، مما يكثف شعورنا بالوقت والمساحة، ويجعل العالم أصغر حجما والمسافات أقصر»[26].

والعولمة في مفهومها الاقتصادي؛ عبارة عن تحوُّل نوعي عن اقتصاد يتَّصف بكل بساطة بأنه دولي، والاقتصاد المدوَّل هو اقتصاد تظل الاقتصاديات القومية المنفصلة فيه مسيطرة، على الرغم من اتساع النشاط بين الدول.[27]

ثمة الكثير مما يجدر فحصه في هذا التعريف، لكن الفكرة التي أريد توضيحها في هذه التعريفات هي أن أحد الآثار المترتبة على تكثيف الترابط هو الدفع بمسألة الهوية؛ فهل صرنا جميعا متطابقين؟ هل تقضي العولمة على الفروق لتفسح المجال للتماثل؟

لمقاربة هذه الأسئلة، لابد من استحضار الارتباط والتشاكل بين مفهوم المعولة وبين مفهوم آخر لا يمكن استبعاده في التحليل، هو مفهوم الاقتصاد.

فعلى الرغم من أن للعولمة مظاهرها السياسية المتعلقة بمدى قدرة الدولة القومية الحديثة على الاستقرار والحفاظ على سيادتها في ظل الوسائل الجديدة للاتصال، وما يعنيه ذلك من نفي للحدود والحواجز، ومظاهرها الثقافية التي تهدف إلى إيجاد ثقافة عالمية واحدة منفتحة، على أنقاض الثقافات والحضارات المتعددة والمتنوعة التي تميل إلى الانغلاق والانكماش، فإن المظاهرات الأكثر بروزا هي ذات طابع اقتصادي. إن العولمة في هذا المجال تعني اندماج أسواق العالم في حقول التجارة والاستثمارات المباشرة وانتقال الأموال والقوى العاملة والتقانة وحتى الثقافات ضمن الإطار الرأسمالي، وكذلك خضوع العالم لقوى السوق العالمية، مما يؤدي إلى اختراق الحدود القومية وإلى الانحسار الكبير في سيادة الدولة. أما العنصر الأساسي في هذه الظاهرة، فهي الشركات المتعددة الجنسيات أو عابرة القوميات.[28]

وهذا المفهوم يختلف عن مفهوم الاقتصاد الدولي الذي يرتكز على علاقات اقتصادية بين دول ذات سيادة، وبينما تشكل الدولة العنصر الأساسي في مفهوم الاقتصاد الدولي تشكل الشركات الرأسمالية المتعددة القوميات العنصر الأساسي في مفهوم العولمة. وهذه الشركات من الضخامة، حيث إن قيمة المبيعات السنوية لإحداها تتجاوز قيمة الإنتاج المحلي الإجمالي لعدد من الدول المتوسطة الحجم. ونظرا لحجم استثماراتها المباشرة وغير

25 ذياب، مها: تهديدات العولمة للوطن العربي المستقبل العربي.-بيروت، عدد 276، مركز دراسات الوحدة العربية، فيفري 2002، ص.152

26 نقلا عن ماثيو أنجيلكه، كيف تفكر كأنثروبولوجي، ص 181

27 إيان كلارك، العولمة والتفكك، مركز الإمارات والدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2003، ص38

28 لأطرش، محمد: العرب والعولمة: ما العمل ضمن العرب والعولمة ... المرجع السابق. – ص، 412

المباشرة في كثير من الدول، فإنها قادرة على الحد من سيادة هذه الدول. فإذا رغبت دولة ما في اتباع سياسة معينة تؤثر سلبيا على أرباح أحد فروعها، قامت الشركة الأم بإغلاق الفرع ونقله إلى مكان آخر، وهذا بحد ذاته يشكل رادعا للدولة المضيفة عن اتباع سياسة غير مناسبة للشركة.[29]

وبالعودة إلى السؤال الذي قمنا بطرحه سابقا حول العولمة وعلاقتها بمحو الاختلاف الثقافي من خلال محاولتها نشر نمط ثقافي واحد في كل أرجاء العالم، يرى ماثيو أنجيلكه أن العولمة لا تؤدي إلى محو الاختلاف الثقافي. وقد توصل علماء الأنثروبولوجيا إلى أن الخطر الكامن في محاولة فرض التجانس الثقافي، سواء أكان حقيقيا أم متخيلا هو أفضل طريقة لتتحقق حالات الازدهار الثقافي الجديدة، وتتخذ هذه الأخيرة شكل تقاليد يعاد إحياؤها في بعض الأحيان.[30]

وفي معادلة الهوية تكتسي الأحداث أهمية، وكذلك الظروف، المنظور، والمكان. ويحتاج كل علماء العلوم الاجتماعية الذين كتبوا عن الهوية بأنها نسبية، وأنها تحدد بالمقارنة مع الآخر.[31]

بقي بعد هذه المكاشفة المختصرة عن مسألة العولمة، أن نقارب سؤالا مهما، هو كيف تتم مواجهة العولمة؟

ب. بناء المناعة الثقافية في ظل نظام العولة

مما لا شك فيه أن هناك اختلافا بين الباحثين حول العلاقة بين العولمة والهوية الثقافية، ومدى خطورة العولمة على الهوية الثقافية للمجتمعات، انطلاقا من أن للعولمة تأثيرات متعددة في حياة المجتمعات من اقتصادية وسياسية وثقافية تنعكس تأثيرا على الهويات الثقافية. وبوجه عام تحاول العولمة أن تذيب الهويات الثقافية للمجتمعات النامية، من خلال عدم اعترافها بتلك الهويات الثقافية، ويؤكد بعض المفكرين أن هناك خطورة للعولمة على الهوية الثقافية، ويظهر ذلك من خلال دفاع «الأنا» عن الهوية الثقافية والخصوصية المحلية في مواجهة الآخر الذي يتحد مع العولمة؛ فالعلاقة بينهما تشكل أزمة وجودية تاريخية كما يراها «حسن حنفي»، هي علاقة غير متكافئة، وعموما تقف الهوية الثقافية في مواجهة التغريب، والتبعية الثقافية، والمهنية الحضارية. وهناك اتجاهات عدة بين الباحثين في مسألة أثر العولمة على الثقافة، وأثرها على الهوية الثقافية، فاتجاه يرى بأن هناك خطورة على الثقافة الوطنية من العولمة تتمثل في العمل على توحيد ثقافات العالم في ثقافة واحدة، وبالتالي يتضمن إلغاء للهويات الثقافية.

وليس من الحكمة أن نتعامل مع العولمة بمنطق الرفض المطلق، أو القبول المطلق؛ فالعولمة عملية تاريخية، وبذلك يعد منطقًا متهافتًا ما يدعو إليه بعضهم من ضرورة محاربة العولمة بشكل عام، فهل يمكن

---

29 سالم لبيض، ثقافة المؤسسة وأثر العولمة في المغرب العربي: مثال تونس, Insaniyat / إنسانيات [En ligne], 22 | 2003, mis en ligne le 30 septembre 2012, consulté le 27 septembre 2020. URL: http://journals.openedition.org/insaniyat/7060 ; DOI : https://doi.org/10.4000/insaniyat.7060

30 ماثيو أنجيلكه، كيف تفكر كأنثروبولوجي، ص 182

31 المرجع نفسه، ص 183

مثلاً محاربة شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) من خلال إصدار قرار بالامتناع عن التعامل معها؟ وهل يمكن الامتناع عن التعامل مع منظمة التجارة العالمية، على الرغم من سلبياتها المتعددة؟ وغير ذلك من المؤسسات العالمية التي لا يمكن الانغلاق دونها.

إن الرفض المطلق للعولمة لن يُمكِّن الدول والمجتمعات من تجنُّب مخاطرها، كما إن القبول المطلق لها لن يمكِّنها من الاستفادة التامَّة منها. وفي نفس الوقت، لابد من بناء مناعة ثقافية تحمي الإرث الحضاري والثقافي الشعوب؛ وذلك عبر الاتجاه إلى تحديد ثقافتنا، وإغناء هويتنا، والدفاع عن خصوصيتنا، ومقاومة الغزو الثقافي الذي يمارسه المالكون للعلم والتكنولوجيا، وهذا لا يقل عن حاجتنا إلى اكتساب الأسس والأدوات التي لابُدَّ منها لممارسة التحديث ودخول عصر العلم والتكنولوجيا؛ فالحاجة إلى التحديث حاجة ملحة، ولا غنى عنها؛ أي إلى الانخراط في عصر العلم والتكنولوجيا ضرورية، ولكننا في الوقت نفسه لابد من مقاومة الاختراق وحماية الهوية وخصوصية الثقافية. من خلال مقاومة الانحلال والتلاشي تحت تأثير موجات الغزو التي تمارس على العالم أجمع بوسائل العلم والتكنولوجيا، وليست هاتان الحاجتان الضروريتان متعارضتين بل متكاملتين.

4. الإعلام التفاعلي والمجتمع الافتراضي التكنولوجيا كثقافة وهوية

يعد البحث في الهوية الافتراضية بحثا في العلاقة بين الشخصية الواقعية والمجتمع الافتراضي، وذلك بالبحث في محددات العلاقة بين الواقعي والافتراضي، فهو بحث في التحولات المحدثة في نسق الشخصية وفي أبعادها الوجودية.

أ. حول مفهوم مواقع التواصل الاجتماعي

تعد مواقع التواصل الاجتماعي، من أحدث منتجات تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات وأكثرها شعبية، ورغم أن هذه المواقع أنشئت في الأساس للتواصل الاجتماعي بين الأفراد، إلا أن استخدامها امتد ليشمل الأنشطة السياسية، والثقافية، والتربوية والرياضية والدينية أيضا، لقد أصبح يطلق على مواقع التواصل هذه - والفايسبوك أهمها- اسم الإعلام الاجتماعي الجديد، ومن سماته: الدينامية، والتطور والانتشار، «وقد كان في بدايته مجتمعا افتراضيا ضيقا ومحدودا، ثم ما لبث أن توسع وتمطط ليتحول من أداة تواصلية نصية مكتوبة، إلى أداة تواصلية سمعية وبصرية أيضا، تؤثر في قرارات المستخدمين واستجاباتهم»[32]

ب. حول مفهوم المجتمعات الافتراضية

مهدت زيادة تعاطي الناس خاصة فئة الشباب مع تطبيقات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات بما فيها مواقع التواصل الاجتماعي لبروز مجتمعات جديدة داخل شبكة الأنترنيت، تختلف كلية عن المجتمعات الواقعية، حيث أوضح «بارلو Barlow» أن «الحياة فيها أصبحت مؤسسة على أولوية الحريات الفردية والالتزام

32 Martin Alban, Éric Delcroix, Facebook: on s’y retrouve, France: Editions Pearson Education, 2008, p1

بالتعددية والتنوع والمجتمع»[33]. وأطلق على هذا النوع من الكيانات: المجتمعات الافتراضية أو الجماعات الافتراضية، والتي لاقت قبولا وانتشارا واسعا لدى المشاركين على الإنترنيت، واعتبرت بذلك أمكنة ثالثة جديدة لكن افتراضية مثل مواقع التواصل الاجتماعي وغرف الدردشة والقوائم البريدية والبريد الإلكتروني وغيرها، حيث تشير الإحصاءات إلى أن موقع التواصل الاجتماعي الفايسبوك مثلا بلغ عدد المنتسبين إليه أكثر من مليار مستخدم يتصل أكثر من نصفهم بالموقع مرة في اليوم على الأقل، ويمضون أكثر من 20 دقيقة في الإبحار عبر صفحاته وفق إحصاءات أليكسا Alexa لترتيب المواقع.[34]

ج. الهوية الافتراضية

تستمد الهوية الشخصية معناها من الوعي بالذات والتميز الفردي عن الآخرين؛ فالأنا ليس هو الآخر[35]؛ أي إن بناء الهوية مؤسس على مبدأ الذاتية والخصوصية، غير أن العولمة وتأثيراتها، لاسيما على النظم الاجتماعية والقيم المجتمعية وعلى طبيعة وآليات بناء الشخصية، قد أحدثت الكثير من التغييرات على مستوى نمط الشخصية ووظائفها. من جهة أخرى، فالمجتمع الافتراضي له قوانينه الخاصة، والتي يصعب التحكم فيها؛ لأنه داخل هذه المجتمعات تتغير شبكات التحديد وشبكات القيم ومعايير التمايز الاجتماعي والقيمي، حيث تنمحي خصائص الحضور المعيش، وتغيب العناصر الظاهرية والشكلية للفرد مثل: اللغة والعادات وأنماط اللباس والجنس واللون والانتماء الوظيفي وغيرها؛ ويصبح الفرد يعرف ذاته عبر أيقونات وأسماء مستعارة او عناوين الإلكترونية.

إن البنية الإشكالية التي تطرحها الدراسة تتعلق بالحدود بين الافتراضي والواقعي، ويمكن اختصار ذلك في الأسئلة الآتية: كيف يتمثل عالم الهوية في العوالم الافتراضية؟ وكيف يساهم في إعادة بناء هوية جديدة تنسجم ومقتضيات المراقبة الموسعة ومجهولة المصدر داخل المجال الافتراضي؟ وإلى أي مدى يمكن الجزم بقدرة المساحات الاجتماعية الرقمية في طمس الحدود بين العالم الافتراضي والعالم الحقيقي؟

للإجابة عن هذه الأسئلة، يمكن استحضار التقسيم الثلاثي للهوية الذي وضعه عالم النفس «وليام جيمس» من خلال ما أسماه بوجوه الهوية؛ (الذات المادية: وهي الجسد)، (الذات الاجتماعية: وهي الأدوار)، (الذات العارفة: وهي التي تمنح الشخص الشعور بأنه ذات مستقلة عندما يعمل ويفكر). ولأن الحديث عن الفرد لا يستقيم إلا بتحديد موقعه ضمن المجموعة، فإن عدة عوامل تتدخل في تشكيل الفرد وهويته، فهي تتشكل على مراحل ومع مرور الأيام والحوادث والتجارب، وهي تتغير باستمرار، عبر مجالات وأبعاد متعددة تجمع بين

33 Barlow John Perry, (1996), A Declaration of the Independence of Cyberspace, inédit. En ligne http://www.eff.org/pub/Publications/John_Perry_Barlow/barlow_0296.declaration

34 بشرى زكاغ، مواقع التواصل الاجتماعي وبناء القناعات الدينية السائلة لدى الشباب: السلفية الجهادية نموذجا، مجلة ذوات الصادرة عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود، عدد 46

35 الفرفار العياشي، الذات الافتراضية والهوية الرقمية للكائن الإلكتروني، صحيفة المثقف، العدد: 5136 المصادف: الاحد 27 - 09 - 2020م، https://cutt.us/ovDqP

الحياة الشخصية والمحيط الاجتماعي والمؤثرات العالمية. لكل شخص أشكال متعددة من الهوية، وهذا التداخل بين الانتماء إلى الهوية الشخصية وأشكال الانتماء الأخرى والمتعددة، يخلق ما يعرف بـ «أزمة الهوية».[36]

وقد عمل عالم النفس «جيمس مارسيا» على إتمام عمل «إريكسون»؛ وذلك بالتركيز أكثر على أزمة الهوية وتفصيلها بشكل أدق. ويعرّف مارسيا الهوية بأنها بناء داخلي يشيّد من طرف الشخص ذاته، وتمثل مجموع المعتقدات والقدرات والدوافع وتاريخ الفرد، وكلما كان هذا البناء متينا كلما كان الفرد أكثر وعيا بأوجه التفرّد والتشابه مع الآخرين. هذه هي نقاط قوته وضعفه في شق طريق حياته بهذا العالم، في حين كلما كان هذا البناء ضعيف التشييد كلما كان الفرد مشوشا بخصوص ما يميزه عن الآخرين، وكلما صار أكثر اعتمادا على مصادر خارجية لتقييم ذاته واكتشافها. ويرى مارسيا أن بناء الهوية ديناميكي وغير ثابت، فهو يتغير كل حين في مراحل حياتية شتى، فتضاف عناصر جديدة لهذه الهوية وتُزال أخرى، فالإنسان دائم البحث والاكتشاف. وهنا يكمن بعد مهم من أبعاد الهوية، هو البعد الاجتماعي؛ فالهوية لا شك ترتبط أشد الارتباط بنظام العلاقات الاجتماعية، وبالتالي يبرز ما يمكن أن نسميه التمايز الهوياتي بين المجتمعات. وفي هذا الصدد، يقول رولان بارث في شأن الهوية الاجتماعية، إنها مزودة بفاعلية اجتماعية، وهي ظاهرة مركزية في نظام العلاقات الاجتماعية وتنظيم التبادلات في كل مجالات الحياة؛ ففي تحديدها لا يتطلب الأمر جرد كل سماتها الثقافية، وإنما يتطلب التعرف على ما تستخدمه تلك الجماعة من سمات دون الأخرى، مما يبرر تميزها بين الجماعات الأخرى. والتمايز هنا يخص ظهور هويات على حساب هويات أخرى.

فكيف تبرز الأبعاد الاجتماعية في الهوية الافتراضية؟

حسب موسوعة الويب webopedia تعرف الهوية الافتراضية Virtual identity بأنها الشخصية التي يتم إنشاؤها من طرف المستخدم الإنسان الذي يعمل كصلة وصل بين الشخص الطبيعي والشخص الظاهري للمستخدمين.[37] وحسب هذا التعريف، فإن الهوية الافتراضية هي السمات والمواصفات التي يقدمها الفرد الطبيعي للآخرين عبر الإنترنت، فتكون عملية الاتصال تتم بين ثلاثة أطراف وليس طرفين وهي: الشخص العادي والهوية الافتراضية والأشخاص الآخرين.

ويمكن القول حينئذ، إنه من خلال إنشاء هوية على مواقع الميديا، إننا نخلق شخصا مختلفًا عنا، قد يشبهنا ولكنه ليس بالضرورة كنهنا الحقيقي، بل هو كائننا المجزأ الذي يندمج في العالم الافتراضي. بالإضافة إلى ذلك، فإن هذا الشخص الآخر هو مقبول من قبل البقية، وهو ما يجعلنا نركز على هوية شخصيتنا المقبولة في العالم الافتراضي، وهي شخصية منضبطة إلى حد ما أو تحاول أن تكون كذلك، حتى تتمكن من الانصهار داخل العالم الافتراضي والانسجام مع من فيه وحتى تحقق هويتها الافتراضية قبولا ولما لا شعبية. وهذا الانضباط هو

36 عبد الحكيم أحمين (2017)، الهويات الافتراضية في المجتمعات العربية، دار الأمان الرباط، المغرب، ص 141-143

37 محمد عابد الجابري، العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الإيديولوجي، مجلة فكر ونقد، عدد 22

الذي يجرها نحو الامتثال لقوانين الشبكات الاجتماعية وقواعدها تماما مثلما يمتثل الشخص السجين لأوامر سجانه، حتى ينال رضاه ويتفادى غضبه.

إذن فمن أهم مظاهر التغيير الاجتماعي والثقافي في زمن العولمة هو طبيعة التحولات المتسارعة، والتي مست الهوية سواء الفردية / الأنا وكذلك الجماعية / النحن، تميز الهوية الافتراضية بوجود حالة من التمزق بين الفعلي والافتراضي، وهي نتيجة منطقية للتواجد والإقامة بين عالمين مختلفين كليا ومتباعدين، وهو ما يزيد من حجم التوتر والقلق، لقد أدت عملية رقمنة العالم إلى انتزاع الواقعية عنه. إنها ظاهرة من العسير التحكم فيها، إنها مثل ثقب أسود يبتلع الواقع المحسوس، قبل أن تصبح اليوم الحواسيب والهواتف الذكية هي ما يمثل هذا الخطر الزاحف الذي يتهدد جغرافيا العالم الواقعي ويبتلعه.

د. الهوية الثقافية على تخوم العولمة وانقلاب الصورة

إن السؤال المهم الذي يمكن إيراده في هذا الموضع هو، في أي اتجاه تتدفق المعرفة والثقافة؟ هل تتحرك من العالمي إلى المحلي، أم العكس؟

يرتبط الإشكال بإشكالية الهوية الثقافية، حيث تنتقل أو تنتشر الثقافات في فضاء حقيقي أو إلكتروني وتتفاعل مع ثقافات أخرى، وما سيحدث من تفاعل ثقافي سيأخذ ثلاثة أشكال: الاستيعاب أو التثاقف أو القطيعة. فالثقافة مالكة لنصاب الإرث الثقافي، وبخاصية انتقاله من خلال السيرورات الأولية لعمليات التنشئة الاجتماعية وإدماج الفرد وتكيفه، لتبدو الهوية ضمن هذا المنظور معطًى مستقلًا وجوهرًا قابلا للتطور. إذا كانت الدولة واحدة والواقع المجتمعي متنوعًا ثقافيًا، فهل من الواجب جعل هذا الواقع انعكاسًا لوحدة الدولة أم جعل الدولة انعكاسًا للتنوع الثقافي؟ إن النتيجة التي يمكن التوصل غليها هي أن: الدولة أحادية الطائفة وأحادية الثقافة واللغة والدين، غير ممكنة اليوم لاعتبارات عملية، وهذا ما يحتم تأصيل مفهوم المواطنة على أساس الفردانية.[38]

خلاصة القول إن العولمة تؤثر في الهويات الثقافية من خلال:

- تآكل الهويات القومية نتيجة لنمو المجانسة الثقافية والحداثة
- تقوية الهويات القومية وغيرها من الهويات المحلية نتيجة مقاومة العولمة
- ذبول الهويات القومية واستبدالها بهويات جديدة هجينة

38 انظر الدراسة المهمة التي أنجزها، عبد الغني عماد، سوسيولوجية الهوية، جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء.

5. الهوية والثقافة والوعي من وجهة نظر إيديولوجية

قدمت الماركسية تفسيرات جديدة، ما تزال تثير كثيرًا من النقاش، حيث اعتبرت أن المادة موجودة بشكل مسبق عن وعي الإنسان «الأصل هو الطبيعة»؛ فهي المصدر الوحيد لكل الأحاسيس والتصورات.

وعليه، فالوعي الاجتماعي يتغير بتغير عناصر الوجود الاجتماعي، وبحسب ماركس، التاريخ هو التوجيه الواعي للطبيعة الأساسية في الإنسان المتمثلة بقدرته التقنية والمسؤولة عن إدراكه عمليات عيشه وحياته، فلا يختلف الناس فيما بينهم، بسبب اختلافات جوهرية في طبائعهم، ولكن بسبب أنماط عيشهم وطرائق عملهم التي يتبعونها لإشباع حاجاتهم، وإن تنظيمهم الاجتماعي ووعيهم كله أمرٌ يتحدد في ضوء هذه الطرق والأساليب. وعلى ذلك؛ فإن الأفكار - بحسب الماركسية- هي نتيجة جدلية لعلاقات الإنتاج، حيث ثمة علاقة وثيقة بين الهيمنة المادية والأفكار السائدة؛ أي إن أفكار الطبقة المسيطرة هي الأفكار السائدة في كل عصر؛ أي: الطبقة التي هي القوة المادية السائدة في المجتمع هي في الوقت ذاته القوة الفكرية السائدة، وعليه؛ لا يمكن فصل البنى الفوقية، من سياسية وقانونية ودينية.. إلخ، عن البناء الأساسي التحتي، المتمثل بنمط الإنتاج. والوعي - بحسب ماركس وإنجلز- لا يمكن أن يكون شيئًا آخر أكثر من كونه وجودًا مدركًا، فالحياة لا تتحدد عن طريق الوعي، بل الوعي يتحدد عن طريق الحياة.[39]

وقد يميز ماركس بين نمطين من الوعي الاجتماعي: الأول تلقائي يعتمد على الإنتاج المباشر وهو وعي قطيعي، والثاني هو وعي تأملي يعتمد على التفكير، وكلا الوعيين ممثلان للواقع المادي الذي تشكل فيه، ويضيف: إن الوعي المتأمل هو الأيديولوجية، وإن للعامل الاقتصادي تأثيرًا مؤكدًا في مظاهر الأيديولوجيا. فالمفهوم الماركسي للهوية والوعي وللأيديولوجيا كان له تأثير عميق في الفكر الحديث.[40] وقد تناول غرامشي مفهوم الهيمنة الثقافية ومفهوم المثقف العضوي، والتمييز بين المجتمع السياسي والمجتمع المدني، ورأى أن المجتمع يتبنى أفكار الثقافة المسيطرة بالضرورة، فتصبح الهيمنة أيضًا ثقافية وفكرية. كما أعاد جورج لوكاش الاعتبار للذات، فالتاريخ عنده ينتج من التفاعل بين الذات والموضوع، في حين قدّمت مدرسة فرانكفورت ما يتعلق بإشكالية الهوية والوعي والأيديولوجيا ما مضمونه أن الهيمنة لم تعد مرتبطة بأنماط الإنتاج المادية، وإنما بالتشكل الحيوي للوعي الإنساني، حيث تلعب التكنولوجية الإعلامية الحديثة دورًا مهمًا في صناعة الأفكار والثقافة، وتلعب السلطة، ومَن يملكها، دورَ التحكم فيما يكتسبه الفرد من فكر وثقافة.

كما يمكن في هذا السياق، الإشارة إلى مفهوم الوعي كمدخل للإدراك، عند دوركهايم، ويشير مفهوم الضمير الجمعي عنده إلى المجموع الكلي للمعتقدات والعواطف بين أعضاء المجتمع، التي تشكل نسقًا له طابع مميز، يكسب هذا الضمير العام واقعًا ملموسًا، فهو يتكون من المثاليات الاجتماعية التي تكوّنها نظمٌ دينية وأخلاقية واقتصادية. يقابل هذا المفهوم مفهوم (أنوميا) عند دوركهايم، ويعني اللامعيارية، وينتج عن فقدان

39 عبد الغني عماد، سوسيولوجية الهوية، جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء.

40 ينظر الفصل الأول من المرجع السابق.

القيم والمعايير الاجتماعية التي تفضي إلى التفكك الاجتماعي. وهنا يدخل الفرد والمجتمع في أزمة هوية. ويرى دوركهايم أن في داخل كل فرد مكونات ومعطيات جمعية، تتمثل بالضمير الجمعي، تتشكل من أنساق قيم وأفكار وعادات ورموز تعبّر عن شخصية الفرد، وتعبّر عن الجماعة التي ينتمي إليها. وهذا الضمير الجمعي هو النواة البانية للهوية الجمعية، وهي ذاتها نماذج التفكير والعمل.[41] ويرى دوركهايم أن الجماعة تفكر وتسلك وتشعر بشكل مختلف تمامًا عن أفرادها، إذا كانوا منفردين، فالتجمع يؤدي إلى إنتاج وعي جمعي وهوية اجتماعية.

41 ينظر الفصل الثاني: الهوية والثقافة والوعي... التفريغ الأيديولوجي، من كتاب عبد الغني عماد، سوسيولوجية الهوية، جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء.

خاتمة

ستظل كل محاولة للبحث في موضوع من مواضيع الظاهرة الإنسانية، معرضة للنقد والتقويم؛ لأن الادعاء بأن الفكر الإنساني مطلق أو مغلق، موقف لا يحالفه الصواب مالم يخدم مصلحة التطوير والتغيير الذي تشهده حقول المعرفة الإنسانية، وذلك نظرا للطابع الذي يميز العلوم الإنسانية، فهي بخلاف علوم الطبيعة تتسم بالتعقيد.

وقد تبين لنا بعد هذا العرض لمجموعة من الأفكار المرتبطة بمفهوم الهوية، أن البحث الأنثروبولوجي من شأنه أن يمكننا من فهم مجموعة من مظاهر الاختلاف بين الشعوب، بل إن هذا العلم لا يوثق لهذا الاختلاف فحسب، بل يتجاوزه لمحاولة فهم هذه الاختلافات، فهدف الأنثروبولوجيا هو الشرح والتفسير. وقد حاولنا أن نبين مستويات التعالق بين عدة مفاهيم حديثة مثل الهوية والثقافة والعولمة والعوالم الافتراضية، وذلك بالاستعانة بعدة نماذج تفسيري، ولم نقف عند مستوى حدود المجال المعرفي واحد، بل إننا حاولنا ما أمكن اعتماد إطار منفتح في الدراسة، فاستعننا بالنظريات الثقافية، كما وظفنا بعض النماذج الفلسفية، وكذا النظريات اللغوية الحديثة، وكل ذلك من أجل محاولة الإحاطة بقضية الهوية في أبعادها المتعددة.

إنّ السمة التي تميز ذهنية نهاية القرن العشرين، هي النظر الداخلي وإعادة النظر في تاريخ الفكر، وكأن كل شيء سبق أن قيل وتم الشعور به، والتفكير فيه، وعولج بصورة دقيقة، فالتفكير هنا يعني بذاته ليشاهد نفسه في مرآة تكوين نفسه، إنه يريد معرفة مرتكزاته، وتقطعاته، وقفزاته، وتغيراته. ما عاد الفكر مكترثا لعملية خلق العالم من العدم، كي يقلد صانعيّة الله، أو ليعيد ممارسة شيء هو من اختصاص الخالق عن طريق التعمق الميتافيزيقي، إنما ينشد رسم صورة لمسار تكامل الثقافة الإنسانية وما بلغته من مستويات وعي تأملية؛ ذلك أن التغير والتكامل من صميم مادة الوجود.

ومن النتائج التي خلصنا إليها في هذا البحث، أن الهوية الثقافية هي الشعور بالانتماء إلى مجموعة. وهو جزء من مفهوم الشخص الذاتي ونظرية الفهم الذاتي ويرتبط بالجنسية والإثنية والدين والطبقة الاجتماعية والموقع أو أي نوع من الفئات الاجتماعية التي لها ثقافتها الخاصة.

وفيما يخص الهوية والعولمة فنحن في أشد الحاجة اليوم إلى خلق إعلام ناضج، يبني الإنسان الواعي والقادر على أن يكون فاعلا في حوار الثقافات، ومصونا ضد أخطار العولمة، ومحافظا على هوية الأمة وقيمها. لضمان الحرية الثقافية وتدعيمها، حيث إن حرية الثقافة وإن كانت تنبع من العدالة في توزيع الإمكانات والإبداعات الإنسانية على الأفراد، فإنها في الوقت نفسه عامل أساس في إغناء الحياة الثقافية وزيادة عطائها؛ ولكن لا يجوز فهم الحرية على أنها فتح للباب أمام كل تعبير، وقبول كل فكر؛ ولكن الحرية المقصودة هي الحرية المنضبطة بضوابط.

لذلك، فبناء المناعة الثقافية يمر عبر التعرف على العولمة الثقافية، والكشف عن مواطن القوة والضعف فيها، ودراسة سلبياتها وإيجابياتها برؤية منفتحة، غايتها البحث والدراسة العلمية، وفي الوقت نفسه نعرِّف تلك الثقافات العالمية بما لنا من تراث وتقاليد وقيم اجتماعية عريقة.

قائمة المصادر والمراجع

***- المراجع باللغة العربية:**

- إيان كلارك، العولمة والتفكك، مركز الإمارات والدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2003
- بركات، حليم، المجتمع العربي المعاصر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، سنة 1984
- توماس كون، بنيّة الثّورات العلميّة، ترجمة: علي نعمان، لبنان، دار الحداثة، الطّبعة الأولى، 1986
- عبد الحكيم أحمين، الهويات الافتراضية في المجتمعات العربية، دار الأمان الرباط، المغرب، (2017)
- عبد العلي الودغيري، اللغة والدين والهوية، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2000
- عبد الغني عماد، سوسيولوجية الهوية، جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء، مراجعة: فادي كحلوس، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، شباط/ فبراير 2017
- عفيف البهنسي، الهوية الثقافية بين العالمية والعولمة، منشورات وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب 2009
- غي روشيه، مقدمة إلى علم الاجتماع العام، ترجمه مصطفى دندشلى، 2 ج، ط 2 (بيروت: مكتبة الفقيه، 2002). ج 1: الفعل الاجتماعي.
- ماثيو أنجيلكه، كيف تفكر كأنثروبولوجي، ترجمة عومرية سلطاني، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط 1، 2020
- مارتن هايدجر، الوجود والزمان، ترجمة فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2012
- مارتن هايدجر، كتابات أساسية، الجزء 2 ترجمة إسماعيل المصدق، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ط1، 2003

***- المراجع باللغة الأجنبية:**

- linguistic anthropology (Silverstein, 1979; Joseph and Taylor, 1990; Schieffelin, Woolard, and Krostrity,1998)
- athryn A. Woolard, Singular and Plural: Ideologies of Linguistic Authority in 21st Century Catalo-nia (Oxford: Oxford University Press, 2016).
- Vaklav Havel ,Il est permis d'espérer, trad. Par Barbara Faure, Calmann-Levy, Paris, 1997
- Zghal, R. : Culture et comportement organisationnel. - Thèse de doctorat d'état 1982
- Edward B. Tylor, Primitive Culture: Researches into the Development of Mythology: Philosophy. Religion, Art, and Custom, 2 vols. (London: J. Murray, 1871).
- Linton, R. : De l'homme.- Edition de Minuit, 1968
- Martin Alban, Éric Delcroix, Facebook: on s'y retrouve, France: Editions Pearson Education, 2008

***- مقالات وبحوث في المجلات**

- محمد الغيلاني، الهوية والاختلاف في قضايا الدين والمجتمع: الهـوية هي الاختلاف، موقع مؤمنون بلا حدود: https://cutt.us/FeFIa
- بشرى زكاغ، مواقع التواصل الاجتماعي وبناء القناعات الدينية السائلة لدى الشباب: السلفية الجهادية نموذجا، مجلة ذوات الصادرة عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود، عدد 46
- ذياب مها، تهديدات العولمة للوطن العربي المستقبل العربي.-بيروت، عدد 276، مركز دراسات الوحدة العربية، فيفري 2002
- رشيد بلحبيب، الهويات اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي، إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت يناير/كانون الثاني 2013
- الفرفار العياشي، الذات الافتراضية والهوية الرقمية للكائن الإلكتروني، صحيفة المثقف، العدد: 5136 المصادف: الاحد 27 - 09 - 2020م، https://cutt.us/ovDqP
- محمد صلاح علي، فلسفة الأصالة: الأخلاق والتقاليد في مجتمع التحرر، مقال منشور في موقع: https://www.ida2at.com/ethics-and-traditions-in-the-society-of-liberation
- محمد عابد الجابري، العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الإيديولوجي، مجلة فكر ونقد، عدد 22

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com